قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير في كتابات الغرب الإسلامي

أ. د. حسن عبد الكريم الوراكلي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة محمد الأول بوجدة

الشعر ديوان العرب، كان عِلْمَ قَوْم لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَعْلَمَ مِنْه، فيه أخبارهم وأيامهم، وفيه أمجادهم ومآثرهم، إلى كونه يَنْبُوع لغتهم، ومستودع لسانهم. وقد أدرك العرب في جاهليتهم هذه القيمة الثمينة للشعر، فتفننوا في الاعتناء به مما يتمثل في روايته وحفظه.

وحين بُعِثَ فيهم رسول من أنفسهم شرح الله سبحانه وتعالى صدور طائفة من شعرائهم للإسلام، فآمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرًا، واتخذوا من الشعر خطابًا يُكَرِّسُ قيم الإسلام الخلقية والسلوكية، وَيَذُبُّ عن دعوته وعن حاملها ﷺ، الذي أشاد بعطاء هؤلاء الشعراء بقوله: "إن من الشعر لحكمة"، ونوه بأثر الخطاب الشعري في نفوس المعادين للدعوة الجديدة بكونه "أسرع فيهم من وقع النبل"، كما أكرم الشعراء الذين حسن إسلامهم وصدق

إيمانهم على نحو ما كان منه ﷺ من خَلْع بُرْدَتِهِ على كَعْبِ بن زُهَيْر حين أنشده قصيدته التي مطلعها:

بَانَتْ سُعادُ فَقَلْبِيَ اليَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُولُ

وعلى نهج رسول الله ﷺ في النظر إلى الشعر ورسالته في الدعوة والتبليغ وجدنا صحبه الكرام يُعْرِبُون عن وعي مُعَمَّق بقيمة الشعر الجمالية واللغوية والدعوية، وأشهرهم في ذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يقول الشعر ويسمعه وينقده.

وبذلك تبدو أهمية الشعر العربي في مصدريته المعرفية والحضارية للأمة العربية، فهو مصدر لغتها، وهو مصدر تاريخها، جاهليًا ومخضرمًا وإسلاميًا، وهو مصدر لما تتوسل به من آليات معجمية وأسلوبية في فهم نصوص الأصلين وإفهامها.

وكان من أهم مظاهر الاهتمام بالنص الشعري عند الرواة العلماء الاختيار من عيون قصائده وجيادها في كتب أفردوه بها مثل (المفضليات) للضبي، و(الأصمعيات) للأصمعي، واختيارات أبي تمام المعروفة بـ (الحماسة) و(جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام) لأبي الخطاب القرشي، وغيرها.

ولم يكن الاهتمام بالنص الشعري جاهليه وإسلاميه مقصورًا على أهل المشرق؛ بل شاركهم في ذلك أهل المغرب،

فقد وعى علماؤهم وأدباؤهم أهمية الشعر العربي المتمثلة في مصدريته المعرفية والحضارية. ومن ثم كان احتفاؤهم بهذا الشعر إذ رحلوا في طلبه، وإذ تلقفوه من حملته، وإذ صرفوا جهودهم في روايته، وإذ تحلقوا لدرسه، وإذ ألفوا في شرحه، وإذ عنوا بمعارضته وكان في مقدمة ما انتشر من نصوص هذه الأشعار نص قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير، وأشهر طريق لرواية القصيدة وقصتها هو ما ساقه ابن هشام نقلاً عن محمد ابن إسحاق. وقد نص ابن هشام على أن ابن إسحاق أورد هذه القصيدة دون سند. على حين عرفنا من العلماء من ذكر لها أسانيد مرفوعة وموقوفة ومقطوعة. ومنهم من علماء المغرب ابن خير الإشبيلي الفاسي، وابن سيد الناس اليعمري، وأبو عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي، وغيرهم ممن عنوا بذكرها في مؤلفاتهم مثل ابن عبد البر النمري القرطبي في كتابه "الاستيعاب"، والكلاعي في كتابه "الاكتفاء"، والسهيلي في كتابه "الروض الأنف".

ومهما يكن من أمر فإن خلو روايات القصيدة من السند أو ضعفه لم يحل دون ذيوعها عبر القرون المتوالية في أوساط شعراء المشرق والمغرب، وكذلك في أوساط العلماء من مشارقة ومغاربة. فقد أولع هؤلاء بها مثلما أولع أولئك. ولعل مسوغ تساهل العلماء في أسانيد القصيدة خاصة، اعتبارها من فضائل الأعمال التي لا تضع حكمًا شرعيًا ولا ترفعه. من ثم وجدناهم يحتفون إلى جانب الشعراء بقصيدة كعب، يستلهمون معانيها بما ينشئون من معارضات على منوالها،

ويتبارون في استجلاء مكنوناتها بما يضعون عليها من شروحات أدبية ونحوية وبلاغية ولغوية وصرفية، يرجون - إلى خدمة متنها خدمة لغة القرآن وبيانه - أن يشملهم ربهم من نفحات النبي مثل ما شمل كعبًا. وهو ما عبر عنه أحدهم بقوله في مدح النبي ﷺ على وزن "بانت سعاد" بقوله:

لقد قال كعب في النبي قصيدة

وقلنا عسى في مدحه نتشارك

فإن شملتنا بالجوائز رحمة

كرحمة كعب فهو كعب مبارك[١]

وبالإضافة إلى هذا الباعث الحثيث كان مما رغب أهل العلم والأدب في الاشتغال بهذه القصيدة ما ذاع على ألسنة أدبائهم وعلمائهم من ضروب التنويه وصنوف الإشادة بها على نحو ما نقرأ عند أبي جعفر الإلبيري: "...وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ، والحكم الذي لم يوجد له ناسخ، أنشدها كعب في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسل بها فوصل إلى العفو عن عقابه، فسد ﷺ خلته، وخلع عليه حلته، وكف عنه كف من أراده، وأبلغه في نفسه وأهله مراده، وذلك بعد إهدار دمه، وما سبق من هذر كلمه، فمحت حسناتها تلك الذنوب، وسترت محاسنها وجه تلك العيوب، ولولاها لمنع المدح والغزل، وقطع من أخذ

(١) المقري التلمساني، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٦٨٩.

الجوائز على الشعر الأمل، فهي حجة الشعراء فيما سلكوه، وملاك أمرهم فيما ملكوه"[٢].

ومن هذا القبيل ما حكاه المقري في النفح عن رؤيا عالم برواية أبي جعفر الإلبيري قال: حدثني بعض شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة بانت سعاد لكعب، فقيل له في ذلك فقال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله: قصيدة كعب أنشدها بين يديك؟ فقال: نعم، وأنا أحبها وأحب من يحبها. قال: فعاهدت الله أني لا أخلو من قراءتها كل يوم[٣].

ومع أننا لا نعرف على وجه التحديد متى وصلت القصيدة الكعبية إلى حواضر الأدب والعلم في الغرب الإسلامي إلا أنه يغلب على ظننا أن تكون وصلت على أيدي أهل الرحلة في الفترات التي بدأ التراث الشعري الجاهلي والإسلامي ينتقل فيها إلى العدوتين المغرب والأندلس. ولعل أقدم ما وصل من أدبيات الكعبية ما كتبه شراحها الكبار كأبي العباس الأحول، وأبي سعيد السكري المصري، وأبي زكرياء يحيى بن علي الخطيب الشيباني التبريزي، وعليه قرأ شرحه أبو بكر ابن العربي، وقد أخبر بذلك فقال: كانت قراءتي لها - أي الكعبية - على الخطيب التبريزي بشرح مستوفى[٤] وأغلب

(٢) نفسه، ج٢، ص٦٨٨-٦٨٩.

(٣) نفسه، ج٢، ص٥٨. يلحظ هنا أنه جعل من القصيدة وردًا يوميًا، وهو ما لا يجوز في غير القرآن الكريم، أو ما ورد عن الرسول ﷺ.

(٤) ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد، **فهرسة ابن خير**، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، (د.ت)، ص٥٨.

الظن أن ابن العربي حملها فيما حمل إلى الأندلس من كتب العلم ودواوين الشعر المشرقية.

وأيًا كانت الحال فقد توالت على حواضر الغرب الإسلامي مع مرور العصور شروح مشرقية أخرى اعتنى المغاربة باستنساخها وحفظها في خزائنهم العامة والخاصة يستفيدون منها فيما يؤلفون ويفيدون بها المعنيين من أهل العلم والأدب تجد نسخها في خزائنهم العلمية الخاصة والعامة وتجد نقولها في مؤلفاتهم، ونمثل لها بشرح جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف ابن هشام النحوي (ت٧٦١هـ)، ومنه نسخة في خزانة القرويين بفاس والمكتبة الوطنية بالجزائر. وشرح الإمام السيوطي (ت٩١١هـ) المسمى "كنه المراد من شرح بانت سعاد" ومنه نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس، وشرح ابن حجر الهيثمي (ت٩٧٤هـ) ومنه نسخة في مكتبة الجزائر الوطنية(٥).

كل أولئك كانت بواعث حفزت علماء الغرب الإسلامي وأدباءه على الإسهام في خدمة نص الكعبية درسًا وشرحًا ومعارضة، وهو ما سنفرد لكل منه فقرة من هذا البحث.

"بانت سعاد" في حلق الدرس المغربية:

لقد كان ما وقع للمغاربة من نصوص الكعبية وشروحها بذرة تشكلت بها مادة الدرس في حلقاتهم العلمية والأدبية بأقطارهم وفي مهاجرهم، وقد عرفنا ممن أقرأها وحدث

(٥) انظر: بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: د.عبدالحليم النجار، ط٤، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.

بها طلابه أبا بكر بن العربي، والقاضي أبا العباس بن الغماز، وأبا الربيع بن سالم، والفقيه أبا القاسم بن حبيش، والحسن بن مغيث، وأبا مروان بن سراج، وأبا القاسم بن الإفليلي، وغيرهم(٦).

وكان من ثمرات التنويه بالكعبية والإشادة بمضامينها وفنونها أن أقبل على غشيان حلقات إقرائها وروايتها طلاب العلم بحواضر العدوتين يأخذون عن شيوخهم أسانيدهم في التحديث بالكعبية، نذكر منهم أبا بكر محمد بن خير بن عمر الأموي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٥٧هـ. وهذا نص سنده بها كما في فهرسة ما رواه عن شيوخه: قصيدة كعب بن زهير التي مدح بها رسول الله ﷺ حدثني بها القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله قال: أنبأنا أبو زكرياء يحيى بن علي الخطيب الشيباني التبريزي وأبو الحسن علي بن سعيد العبدري الإمام الشافعي، وأبو الفضائل محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن صوف البغداديون قالوا: أنبأنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري قال: أنبأنا أبو عمر محمد بن العباس بن حيويه، قال: أنبأنا أبو بكر عن أبيه عن عبدالله بن عمر عن إبراهيم بن المنذر عن الحجاج بن ذي الرقيبة بن عبد الرحمن بن كعب بن زهير ابن أبي سلمى عن أبيه عن جده، وذكر الحديث والشعر، قال ابن العربي: كانت قراءتي لها على الخطيب التبريزي بشرحها له مستوفى(٧).

(٦) **فهرسة ابن خير**، ص٤٠٠.

(٧) نفسه، ص٤٠٠-٤٠١.

ونذكر منهم فيمن كان يختلف إلى مجالس الإقراء والرواية شمس الدين أبا عبدالله محمد بن جابر بن محمد القيسي الوادياشي المتوفى بتونس سنة ٧٤٩هـ وهذا نص سنده بها كما أثبته في برنامجه: بانت سعاد سمعتها على القاضي أبي العباس بن الغماز بسماعه لها على أبي الربيع بن سالم، قال: قرأتها على الفقيه أبي القاسم بن حبيش وغيره برواية ابن حبيش لها على الحسن بن مغيث عن أبي مروان بن سراج عن أبي القاسم بن الإفليلي عن أبي عيسى يحيى بن عبدالله عن عم أبيه عبيدالله بن يحيى عن محمد بن عبدالرحيم البرقي عن ابن هشام عن البكائي عن ابن إسحاق بسنده في سيرته(٨).

كما عرفنا ممن تصدر لإقرائها من نزلاء أهل الغرب الإسلامي بالحجاز أبا محمد عبدالله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي المتوفى سنة ٧٦٩هـ وكان يدير حلقته في تدريس الكعبية على قضايا النحو والإعراب مما كانت حصيلته كتاب ألفه وسماه "شفاء الفؤاد في إعراب بانت سعاد" وحظي بتنويه يدل على القيمة العلمية التي اكتسبتها حلقته حول إعراب الكعبية(٩).

(٨) الوادي آشي، محمد بن جابر، **برنامج الوادي آشي**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٢٠.

(٩) ابن فرحون، عبدالله بن محمد، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج١، ص١٦٠.

"بانت سعاد" في الشروح المغربية:

عني علماء الغرب الإسلامي بوضع الشروح على كثير من نصوص المشارقة اللغوية والنحوية والأدبية والشعرية، ومن هذه قصيدة "بانت سعاد"، فإلى جانب ما أولوها من عناية في حلقات الدرس اهتموا بوضع شروح لها تفننوا في معالجة مضامينها واجتهدوا في كشف معانيها.

وقد عرفنا من هذه الشروح نحو عشرة، هي: شرح أبي القاسم عبدالرحمن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١هـ، وشرح أبي موسى عيسى بن عبدالعزيز بن يلبخت الجزولي المراكشي المتوفى سنة ٦٠٧هـ، وشرح أبي الفتح فتح الدين محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة ٧٣٣هـ، وشرح أبي محمد عبدالله بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي الأصل المدني المولد والنشأة والدار المتوفى سنة ٧٦٩هـ، وشرح محمد العربي بن يوسف الفاسي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، وشرح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبدالله الجزولي الحضيكي المتوفى سنة ١١٨٩هـ، وشرح أبي عبدالله محمد بن الحسن بن مسعود بناني الفاسي الفقيه المالكي المتوفى سنة ١١٩٤هـ وشرح أبي عبدالله محمد بن محمد الطالب ابن سودة الملقب بالتاودي شمس الدين القرشي الفاسي ت١٢٠٩هـ، وشرح أبي حامد محمد المكي بن محمد بن علي البطاوري المتوفى سنة ١٣٥٥هـ.

ونعرف فيما يلي بثلاثة من الشروح المذكورة، أولها لغوي أدبي، وثانيها لغوي نحوي، وثالثها جامع لفنون العلم والأدب:

أما الأول فشرح فتح الدين محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس اليعمري (ت٧٣٣هـ) ضمن كتابه منح المدح. وقد قدم لشرحه بالتعريف بكعب ثم عرض قصته نقلاً عن سيرة ابن إسحاق، وضمنها سبب إنشاد الكعبية وإنشادها بين يدي رسول الله ﷺ وصحبه الكرام. وأورد نص الكعبية ثم جعل يشرح ألفاظ القصيدة لغويًا على غرار ما عرفنا في شروح غيره عند المشارقة والمغاربة محيلاً على موارد أندلسية مثل الخشني وابن سيدة والسهيلي والبلوي(١٠).

وأما الثاني فشرح أبي محمد عبدالله بن محمد بن فرحون التونسي المتوفى سنة ٧٦٩هـ قصد به إعراب القصيدة، فكان يدير حلقته في تدريس الكعبية على النحو والإعراب مما كانت حصيلته كتاب ألفه وسماه "شفاء الفؤاد في إعراب بانت سعاد". ومع الأسف لم يصل إلينا هذا الشرح، لكننا حظينا بما يدل على جودته العلمية، وذلك في تنويه أثير الدين أبي حيان إمام وقته في العربية حين اطلع عليه فاستعظم علم ابن فرحون في إعراب "بانت سعاد" وأثنى عليه، وقال: ما ظننت أنه يوجد بالحجاز مثل هذا الرجل(١١).

وأما الثالث فشرح أبي حامد محمد المكي بن محمد بن علي البطاوري سنة ١٣٥٥هـ. وعنوانه "الاستسعاد بشرح قصيدة بانت سعاد" وقد ذكر في طالعة الشرح جملة بواعث حدت به إلى شرح الكعبية ذكر في مقدمتها التماس بركتها

(١٠) ابن سيد الناس اليعمري، **منح المدح**، تحقيق: عفت وصال حمزة، دار الفكر، دمشق، ص٢٦٠.

(١١) بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج١، ص١٦٠.

ممن أنشدت بين يديه ونسب مدحها إليه، وقد أكد هذا التوجه حين أفصح عن مقصده الأصلي من الشرح، فقال: "والقصد الأصلي هو خدمة الجناب الشريف زاده الله شرفًا وضاعف عليه دائم صلواته ونوامي رحماته وبركاته وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا". وأضاف إلى هذا الباعث ما عبر عنه بتلذذه بالقصيدة وحضور إنشادها في المجالس، واطلاعه على ما كتب من شروح عليها وإعجابه بها. قال:"فلم أزل أتلذذ بإنشادها وأتيمن بسعادها وأستنشدها في المجالس، وأتطلب بيان ما تضمنته من النفائس، وأنزه الطرف في حدائق شروحها، وأتملى بمحاسن مباني صروحها"(١٢).

وقد جعل بين يدي شرحه مقدمات: خص أولاها بناظم القصيدة ومكانته الشعرية وأخباره بما فيها مجيئه رسول الله ﷺ يستأمنه تائبًا مسلمًا، ثم ثنى بالحديث عن الشعر والقول في المديح الذي يعظم بمقدار عظمة المادح. وتناول التعريف بالقصيدة الكعبية واصفًا إياها بكونها ذات مكانة سامية، وفضائل أثيرة، ومحاسن كثيرة(١٣).

أما منهجه الذي اعتمده في مجموع شرحه فقد أقامه على معالجة علمية أدبية تمتاح من فنون العربية لغتها وإعرابها ومعانيها وبيانها وبديعها يستنطق بمجموع آلاياتها وبقلم عالم متمكن وأديب بارع مكنون أبيات "الكعبية" ومضمونها.

(١٢) البطاوري، أبو حامد المكي، **الاستسعاد بشرح قصيدة بانت سعاد**، مكتبة الطالب، الرباط، ١٣٦٤هـ، ص٢٣، ٣٤.

(١٣) نفسه، ص٣٤.

وقد قاده هذا المنهج إلى تحري أبيات القصيدة في روايتها واستبعاد ما لم ينعقد عليه الإجماع من قبل مصنفي السيرة والشراح، ومن ذلك هذا البيت:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

قال: "لم يثبت في رواية ابن هشام صاحب السيرة ولا في سيرة ابن سيد الناس ولا في "الاكتفاء" الذي اعتمدت في هذا الشرح روايته، وكذلك لم يشرح عليه العلامة ابن هشام الأنصاري"[١٤] ومن ذلك هذا البيت:

وقد أتيت رسول الله معتذرًا

والعذر عند رسول الله مقبول

قال: "وليس هو في الرواية التي شرحنا عليها، ولم يكتب عليه أكثر الشراح" ومعناه ظاهر[١٥].

أما مصادره فمتعددة يأتي في مقدمتها الأصلان الكتاب والسنة، ثم كتاب "الاكتفاء" الذي اعتمد روايته في شرحه يتلوه - فضلاً عن كتب السير واللغة والأدب والشعر وهي كثيرة - جملة شروح مثل شرح التبريزي، وشرح ابن هشام، وشرح أحمد بن عمر الهندي، وشرح الباجوري، وشرح صاحب الروض الأنف[١٦].

---

(١٤) نفسه في مواضع عدة من الشرح.

(١٥) النبهاني، يوسف بن إسماعيل، **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**، بيروت، دار المعرفة، (د.ت)، ج٣، ص٦٣؛ إقبال، أحمد الشرقاوي، **بانت سعاد في إلمامات شتى**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ص٦٥.

(١٦) **نفح الطيب**، ج٢، ص٦٧٦.

وترى أثر هذه المصادر فيما يسوقه من نقول وشواهد يوضح بها معاني أبيات القصيدة، ومن أمثلة ذلك ما استشهد به من القرآن الكريم في شرحه بيت كعب:

نواحة رخوة الضبعين ليس لها

لما نعى بكرها الناعون معقول

قال: "والناعون جمع ناع، وهو الذي يأتي بخبر الموت كما مر، والمعقول بفتح الميم وسكون العين المهملة بعدها قاف العقل يقال عَقَلَ يَعْقِلُ من باب ضَرَبَ، عَقْلاً ومعقولاً فهو من المصادر التي على وزن مفعول كالمفتون في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦] أي الفتنة ومن ذلك" نعى الناعون جناس الاشتقاق لأنهما يرجعان لأصل واحد كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠][١٧].

ومن الشاهد الحديثي في بيت الشاعر:

تسعى الوشاة بجانبيها وقولهم

إنك يابن أبي سلمى لمقتول

قال الشارح: "تسعى بفتح التاء المثناة فوق وسكون السين بعدها عين مهملة مفتوحة من سعى سعيًا بمعنى عدا أي أسرع في سيره، ومنه حديث "إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون"[١٨].

(١٧) ابن رشيد السبتي، محمد بن عمر، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ، ج٣، ص٤٣.

(١٨) **المجموعة النبهانية**، ج٣، ص٨٩.

ومن الشاهد الحديثي قول الشارح في هذا البيت :"والمراد من ابن أبي سلمى ناظم القصيدة سيدنا كعب بن زهير ابن أبي سلمى كما تقدم فقد نسبوه إلى جده الذي هو أبو سلمى كما في قوله ﷺ:

أنا النبي لا كـــــذب

أنا ابن عبدالمطلب[١٩]

ومنه في شرحه بيت:

أنبـئت أن رسـول الله أوعـدني

والعـفـو عند رسـول الله مـأمـول

قال الشارح:"هذا البيت هو المقصود من القصيدة وجميع مـا تقـدم توطئـة له فـإن الغـرض التنصل والاسـتـعطاف واسـترضـاؤه عليـه الصـلاة والسـلام واسـتـجـلاب أخـلاقـه الكريمة وكان صلى الله تعالى عليه وسلم أبعد الناس غضبًا وأسـرعهم رضا. والأحـاديث والآثار بعفـوه صلى الله تعـالى عليه وسلم وحلمه وصفحه كثيرة متواترة، ومن أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم: عفو. وقد وصفه الله تعالى بالعفو في القرآن والتوراة كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما عند البخاري: ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح"[٢٠].

وعلى هذا النحو كان البطوري يفيد من الكتاب والسنة بما يقبس من نصوصهما ويستثمر نقولهما في إغناء شرحه.

---

(١٩) **بانت سعاد في إلمامات شتى**، ص٣٥.

(٢٠) نفسه، ص٣٤.

وكان إلى ما يفيده من نصوص الأصلين في فهم وإفهام شرحه يغرف لإغنائه من موارد الشعر. ومثال ذلك استشهاده بشعر لبيد عند ذكر بيت الكعبية:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

يومًا على آلة حدباء محمول

قال:"كل مولود وإن طالت سلامته في الدنيا من العوارض والآفات لا بد من موته". وقال الشاعر لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وكل ابن أنثى لو تطاول عمره

إلى الغاية القصوى فللقبر آيل

وكل أناس سوف تدخل بينهم

دويهة تصفر منها الأنامل[٢١]

ومن ذلك في شرحه بيت الكعبية:

تَجْلو عوارضَ ذي ظَلَم إذا ابتسمتْ

كأنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاح معلول

قال الشارح:"كأنه منهل" هو من باب التشبيه المؤكد لأن الأداة وهي "كأن" مركبة من كاف التشبيه و"أن" للتوكيد، وطرفا التشبيه اسم كان وخبرها، وهما حسيان، والمشبه واحد والمشبه به متعدد، فهو من قبيل تشبيه الجمع كقول البحتري:

(٢١) نفسه، ص٢٣.

كـــــأنما يبـــــــسم عـن لؤلـؤ
منضـــــــد أو بـرد أو أقـــــاح

ووجه الشبه استعذاب الطعم والإسكار لأن المعنى: "كأن ذلك الثغر سقي بالراح المرة بعد المرة"(٢٢).

ومن المؤكد أن وفرة المصادر، ومنها شروح الكعبية التي نقل عنها البطوري، تدل على معرفته الواسعة بالمكتبة العلمية والأدبية. غير أنه لم يكن يكتفي باستثمار نقولها في إغناء شرحه، بل كان يعقب عليها ويستدرك، وهو ما أخصب شرحه بآرائه الذاتية وذائقته الخاصة. ومثال ذلك في شرحه بيت الكعبية السابق تعقيبه على أحمد بن عمر الهندي في فهمه بقوله: ويظهر أن هذا أرجح مما ذكره المحقق الهندي من الصفاء والبريق وجعل وجه الشبه اللون وأطال بذلك لأن وصف الراح بالاستعذاب والإسكار أشهر من وصفها بالصفاء والبريق، وهذا مما لا أظنه يعزب عن علم ذلك العلم، وكأنه - رحمه الله - إنما عدل عن التعارف رعيًا للأدب مع شريف المقام لكون ذلك من الحرام مع أن باب التشبيه يغتفر فيه التنبيه(٢٣)، وزاد فَسَاق تعضيدًا لفهمه ما تحدث به أبو بكر ابن العربي في "أحكام القرآن" عند قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]: إن الاستعارات والتشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

(٢٢) المجموعة النبهانية، ج٣، ص٥٢.
(٢٣) نفسه.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر حتى في تشبيه ريقها بالراح وقد كانت حرمت قبل إنشاده لهذه القصيدة، ولكن تحريمها لم يمنع عندهم طيبها بل تركوها على الرغبة فيها والاستحسان لها أعظم لأجورهم وعقب الشارح بقوله: "ولا يكاد يعرف تشبيه اللمى بالخمر إلا في الاستعذاب والاستلذاذ وفعل الخمر في الذكاء والطيب يشهد بذلك ما شاع في ذلك مما لا نطيل به كقوله:

شهد اللثم وهو شاهد عدل
أن في ثغره رحيقًا وشهدًا

وقد قال السري في استزارة صديق له:

نفسي فداؤك كيف تصبر طائعًا
عن فتية مثل البدور صباح
نهضوا لراحهم وذكرك بينهم
أذكى وأطيب من نسيم الراح[٢٤]

(٢٤) نفسه.

ومن ثم يسوغ لنا القول بأن البطاوري استوفى في شرحه "الاستسعاد بشرح قصيدة بانت سعاد" من القيمة العلمية والأدبية ما بوأ عمله مكانًا سنيًا بين شروح الكعبية المشرقية والمغربية.

"بانت سعاد" في البعد الشعري المغربي:

شغل المغاربة فيما نسجوه على منوال الكعبية من شعرهم بفن المعارضة يستحثهم عليه إعجابهم بالنص الكعبي ورغبتهم في أن يقيسوا شعرهم على أمثلة متنوعة من أشعار غيرهم، كما كان يفعل الذين شغلوا بمعارضة القصائد الجياد قديمًا وحديثًا، فإذا أضفنا إلى ذلك دافع التبرك بمن أنشدت بين يديه ﷺ أدركنا سر هذا الإقبال الموصول على معارضة الكعبية عبر العصور من قبل شعراء المشرق والمغرب الذين تباروا فيها وتسابقوا في مضمارها، فمنهم - كما قيل بحق - من جلى وبرز وحاز قصب السبق وأحرز. ومنهم شعراء الغرب الإسلامي الذين خلفوا لنا إسهامات في النسج على منوال "بانت سعاد" أبانت عن محكم صنعتهم ومتقن فنهم ليس فقط في نطاق اتفاق قصيدتين في الوزن والقافية والموضوع مما يساعد على قيام موازنة فنية بينهما، ولكن مع رصد الملامح المشتركة بين النصين من حيث الصور المشتركة والصيغ المكررة حسب ما اشترط الجرجاني في عقد الموازنة بين قصيدتين من اتفاق في الوزن والقافية وإعراب القافية.

وقد عرفنا من معارضات المغاربة معارضة ضياء الدين أبي الحسن علي بن محمد بن يوسف الخزرجي (ت٦٧٦هـ)، وهو الذي

لقيه ابن رشيد السبتي بثغر الإسكندرية وأنشده من أشعاره[٢٥]، ومنها قصيدته الطويلة في معارضة الكعبية، مطلعها:

ما في سعاد لنا قصد ولا سول
فإن قلبي عنها اليوم مشغول

ومنها قوله:

وما في سعاد قصد لنا ولا سول
فإن قلبي عنها اليوم مشغول
وما سعاد وما مقدار منصبها
حتى أبيت وقلبي منها متبول
سيان عندي إن بانت وإن وصلت
فوصلها بنصال الصد موصول
ما إن يدم لها عهد وإن غدرت
فهو الوفاء وعهد الغيد ممطول

وقد أورد منها ابن رشيد خمسة عشر بيتًا، وقال: ثم تمادى في مدح النبي... إلى أن نيف على مائتين وثلاثين بيتًا تعلي قدره وتحيي ذكره[٢٦].

وعرفنا من معارضات شعراء الغرب الإسلامي معارضة أبي عبدالله محمد بن علي جابر الهواري المري - نسبة إلى ألمرية بجنوب الأندلس - المتوفى عام ٧٨٠هـ، وهي في ١١٦ بيتًا مطلعها:

(٢٥) **نفح الطيب**، ج٢، ص٦٧٦.
(٢٦) **ملء العيبة**، ج٣، ص٤٣.

بانت سعاد فعقد الصبر محلول
والدمع في صفحات الخد مبذول
لم يخف حبي عن واش وكيف بأن
يخفى وسائل دمعي عنه مسئول
عذاب قلبي عذب في محبتها
وعاذلي في هواها اليوم معذول
قد كلت الرسل فيما بيننا ومضت
في الهجر أيامنا والهجر مملول
إن المحب على وصل لفي تعب
فكيف حالته والهجر موصول[٢٧]

وقد توسل في أبيات منها "منزلاً حاله على حال كعب حين وفد على الرسول ﷺ فتقبل منه وعفا عنه"[٢٨]:

فلوا أتيت وقد قصرت من زمن
وهل قبول مع التقصير مقبول
بأي وجه تلاقيهم فقلت لهم
ضيف الكرام على العلات مقبول
قد كان ما كان من كعب وحين أتى
مؤملاً لهم ما خاب تأميل

(٢٧) **المجموعة النبهانية**، ج٣، ص٥٢؛ وانظر ديوان ابن جابر المسمى "**نفائس المنح وعرائس المدح**".

(٢٨) نفسه.

وقـــد مـــشـــيت على آثاره وعلى
إحسانهم لي في الإسعاف تعويل

وختم قصيدته "راجيًا أن يصيبه مثل ما أصاب كعبًا من المرحمة والعتبى":

يا سـيـد الرسل عـبـد قـد أتى وله
من سـالف الذنب تخـويف وتخـجـيل
وقـد أتيت بضـعـفي مـا أتاك به
كـعـب على أن باعي مـا له طول
فـإن قـبلت ونالتني مـراحم قـد
نالتـه لم يبق لي من بعـدها سـول
وإن كـعـبًـا علينا إذ غـدا سـبـبـا
لكعب خـيـر بيـمن الله مـشـمـول

ومن معارضاتهم معارضة الإمام أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٦٨٤هـ) عنونها بـ"المورد العذب في معارضة كعب"، في ثلاثة وثمانين بيتًا، استلهم الافتتاحية الغزلية عند كعب:

لا تعـذلاه فـمـا ذو الحب مـعـدول
العـقل مـخـتـبل والقلب مـتـبـول
هزت له أسـمارًا من خـوط قامتها
فـمـا انثنى الصب إلا وهو مـقـتـول
جـمـيلة فـصل الحـسن البـديع لهـا
فكم لهـا جـمل منه وتفـصـيل

فـالنحـر مـرمـرة والنشـر عنبـرة
والثـغـر جـوهرة والريق مـعـسـول
والطرف ذو غنج والعـــرف ذو أرج
والخـصـر مـخـتطف والمتن مـجـدول
هيفـاء ينبس في الخصر الوشاح لها
درمـاء تخـرس في السـاق الخـلاخيل

وينتقل من الافتتاحية الغزلية إلى سؤال التوبة وعفو الله تعالى وتوبته فيقول:

أتـاك مـنـك نـذير فـــانـذرن بـه
وبادر التـوب إن التـوب مـقـبـول
وأمِّل العفوَ واسلك مَهْمَهًا قذفا
إلى رضـا الله إن العـفـو مـقـبـول
إن الجـهـاد وحَج البـيت مـخـتـتـمـا
بذمّـة المصطفى للعفـو تأمـيل[٢٩]

ومن معارضاتهم معارضة فتح الدين محمد بن محمد بن أحمد اليعمري المعروف بابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ، وسماها "عدة المعاد في عروض بانت سعاد"، وهي في ست وثمانين ومائة بيت، وذكر النبهاني أنه صحح متنها على عدة نسخ[٣٠]، وهو ما يستفاد منه ذيوعها وانتشارها. وقد

(٢٩) نفسه.
(٣٠) نفسه.

استفتحها بمقدمة جنح بها إلى النسيب نفسه وحديث الرحلة، نسوق لك منها:

قلبي بكم يا أهيل الحي مأهول
وحبله بأماني الوصل موصول
ولست ألوي على عذر ولا عذل
ففي المحبة معذور ومعذول
وكل صعب بها سهل علي وما
يذم في الحب محمود ومحمول
يا خالي القلب قلبي في محبتهم
لك السلامة مشغوف ومشغول
مضنى بهم وبماض من تذكرهم
مقيد فهو معلول ومغلول
يا جيرة نزلوا بالسفح سفح دمي
ما بين أطلاكم في الحب مطلول
حالت لبعدكم الأيام ناقصة
عهد السرور وللأيام تحويل
وطال ليلي حتى لا انقضاء له
ولا يحيط به عرض ولا طول
من بعد ليلى كمر الطرف أحسبه
يبديه لي من وضوح الصبح تخييل

وإلى اهتمام المغاربة بمعارضة الكعبية اهتموا بتخميساتها، واشتهر منهم العلامة الأديب أبو عبدالله محمد بن محمد التهامي الأوسي الأندلسي أصلاً الرباطي دارًا ومنشأً بتخميس بديع على القصيدة أورد البطاوري في شرحه عقب الكلام على كل بيت تخميسه. ونسوق فيما يلي نماذج من هذه التخميسات.

ففي قول الشاعر:

بَانَتْ سُعادُ فَقَلْبِيَ اليَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُولُ

يخمس التهامي الأوسي بقوله:

دم المحب بسيف الحب مطلول
ودمعه بعد بين الحب مهمول
فقصروا واقصروا في العذل أو طولوا
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

وفي قول الشاعر:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول

يخمس التهامي الأوسي بقوله:

سيان إن عذروا في الحب أو عذلوا
فليس لي عوض عنهم ولا بدل

فـالقلب سـبـتـه منـي الأعين النـجل
ومـا سـعـاد غـداة البين إذ رحلوا
إلا أغنُّ غـضـيـض الطرف مكحـول

وفي قول الشاعر :

أنبـئت أن رسـول الله أوعـدني
والعـفـو عند رسـول الله مـأمـول

يخمس التهامي الأوسي بقوله:

وصـار من كـان يدنيني يبـعـدني
ومـن أظن به خـيـرًا يهـددني
وليس تصـغى على أقـوالهم أذني
أنبـئت أن رسـول الله أوعـدني
والعـفـو عند رسـول الله مـأمـول

وفي قول الشاعر:

إن الرسـول لسـيف يسـتـضـاء به
مـهند من سـيـوف الله مـسلول

يخمس التهامي بقوله:

فـارجع مـقـالك عن واد وصـاحـبـه
ولا تقل غـيـر صـافـيـه وصـائبـه
فالمصطفى المجتبى من نسل غالبه
إن الرسـول لسـيف يسـتـضـاء به
مـهند من سـيـوف الله مـسلول

وهذه أمثلة من تخميسات التهامي في أبيات مدح الصحابة، ففي قول الشاعر:

في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما لأسلموا زولوا

يخمس التهامي بقوله:

من معشر شهدت قدمًا فضائلهم
وفاز بالجود راجيهم وآملهم
ولم يزل بالتي تعلو منازلهم
في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا

وفي قول الشاعر:

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل

يخمس التهامي بقوله:

أخيار إن ذكروا في الدين أو وصفوا
أجياد بالفضل والإحسان قد عرفوا
إذا قال قائلهم زولوا ولا تقفوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل

وعرف من المغاربة بتخميس الكعبية محمد بن محمد الطيب المغربي التافلاتي بشرح تخميساته الذي سماه

"الإسعاد بشرح تخميس بانت سعاد" وقد قدم لعمله بقوله: لم أر لمشاهير فحول الشعراء تخميسًا يتشنف به المسامع ولا تشطيرًا يهتز له القارئ والسامع، وكأنهم تحاشوها لأن التكحل في العينين ليس كالكَحَل، كيف لا وكعب عالي الكعب، وقد مثل الدكتور السيد إبراهيم محمد تخميسه لأبيات القصيدة قوله في تخميس البيت الأول(٣١).

صب الخيام عن الدهناء مخبول
والعقل حين ظعين الحي مخبول
ناديت من أسفي والحب محبول
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

(٣١) محمد، السيد إبراهيم، **قصيدة بانت سعاد وأثرها في التراث العربي**، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٦١.

حسن الصحابة
في شرح أشعار الصحابة

تأليف

جابي زاده علي فهمي

٣٨٢ صفحة

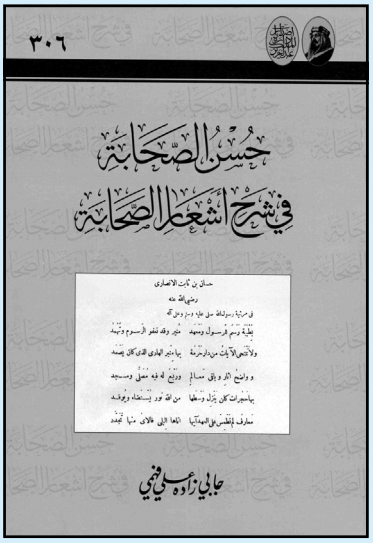

هذا الكتاب مصور من طبعة قديمة صدرت سنة ١٣٢٨هـ قبل أكثر من قرن من الزمان في البوسنة والهرسك في مدينة موستار التي كان المؤلف مفتيًا للهرسك فيها، وضمّنه أشعار ستين شاعرًا من الصحابة رضي الله عنهم مع شرحها والتعليق عليها، وهو يمثل الجزء الأول من مجموعه كما أشار مؤلفه في مقدمته إلى أنه سيكون من ثلاثة أجزاء، لكنه ربما لم يتمكن من إتمامه أو أن بقيته ما زالت مخطوطة.

إصدارات الملك عبدالعزيز

الدارة

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية

هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧

بريد إلكتروني info@darah.org.sa